سعد زغلول نصار :

رباعية مصرية فرسان التراب الأسمر.. (*)

رباعية مصرية، دراما تليفزيونية تاريخية وطنية إنسانية، تغطى فى ثلاثين حلقة ملحمة الكفاح الشعبى المصرى طوال قرن من الزمان، من قبل الحملة الفرنسية (١٧٩٨)، وحتى ما بعد الثورة العرابية (١٨٨١) عبر ولايات محمد على وعباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق.. أركان هذا الكفاح رباعية " الشعب والأزهر والكنبسة والجيش "، فى مواجهة القصر والاحتلال، وميدانه الثورات الشعبية الأربع.. ثورة القاهرة الأولى (١٧٩٨) التى سرعان ما امتدت إلى باقى مصر ضد الاحتلال الفرنسى، ثم الثورة الثانية (١٨٠٠) التى فى أعقابها قتل الجنرال كليبر، ثم الثورة الثالثة (١٨٠٤/١٨٠٥) على حكم المماليك ثم على الوالى التركى، ثم الثورة العرابية (١٨٨١) فى مواجهة السراى والحكم الاستبدادى الذى عصف بالبلاد.

---

* الأهرام ٢٠٠٧/١٢/١٣

نسج الأديب الإذاعى سعد زغلول نصار خيوط أحداث هذه الدراما الضخمة، من خلال أربعة أجيال لأسرة من الفلاحين المصريين. فى قرية من قرى الريف المصرى بين القاهرة والإسكندرية، يعيش الجد الأكبر الحاج إبراهيم "المكسيكى ".. شيخ طيب حكيم فى السبعين.. متين البنيان.. كان فى صباه جنديا فى جيش الفلاحين المصريين الذى أنشأه محمد على - بقيادات أجنبية - إبان ولايته (١٨٠٥/١٨٤٩).. عاصر الجد بعض الحروب، وسرح أيام عباس (١٨٤٨/١٨٥٤)، ثم عاد إلى الصفوف أيام سعيد (١٨٥٤/١٨٦٣).. وحين عاد إلى قريته بعد تسريحه نهائيا فى بدايات حكم إسماعيل (١٨٦٣) كان برتبة باشجاويش، ولبلائه فى حملة " المكسيك " (١٨٦١) أقطعوه أرضا فى قريته، وأصبح عمدتها.. لقبوه بالمكسيكى علىَ سبيل المزاح وإيماءً لما يحمله من حكايات عن المكسيك وعن الفلاح المكسيكى المقهور كما الفلاح المصرى !.. هو إلى جوار ذلك خزانة حية من الذكريات والتجارب وحكايات السابقين.. يرويها فى حواراته وهو يقابل الكاشف والجابى وضابط الحفظية فى البندر، وفى مسامراته، وفى ملاحاته مع صديقه الشيخ الجركسى الذى " راحت عليه ".. لا يكفان معا عن حديث الذكريات.. يذكر الشيخ إبراهيم المكسيكى أباه وجده أيام أن هربوا إلى بولاق القاهرة من مظالم المماليك فى الصعيد.. يتذكر الشيخ إبراهيم كيف شارك مع البولاقية "العترة " فى الكفاح ضد الفرنسيين (نابليون وكليبر).. ويحفظ عن ظهر قلب بطولة ابن الأزهر الفتى سليمان الحلبى الذى قتل كليبر فأحرقوا يده اليمنى وأعدموه على الخازوق وعلقوا جثمانه مع ثلاثة من رءوس شيوخ الأزهر نهبا للعقبان !.. يحلم كغيره من الفلاحين باليوم الذى يصير فيه

المصرى سيدا على أرضه.. يرضى غروره فى اعتلاء الجراكسة المنفوخين على الفاضى، أن يزوج ابنه " محمدين " من " بمبة خاتون " ابنة صديقه الجركسى.. يشق محمدين طريقه فى رعاية " ولى النعم " الذى أرسله واعظاً لبعثة الطلبة المصريين فى أوروبا، ليعود سعيدا بالجسور المفتوحة بين زوجته وبعض قريباتها وخدیناتها مرضعات أو " كلفوات " قصور الخديو والأمراء.. لا يجد بأسا على خلاف أبيه الشيخ إبراهيم المكسيكى - من مصانعة طبقة الحكام والتقرب إلى " إسماعيل المفتش " شقيق الخديو إسماعيل فى الرضاع.. لولا تدخل أبيه الشيخ إبراهيم لدى شريف باشا المصرى العواطف، لناله شر كبير فى مأساة إسماعيل المفتش.. محمدين ابن الجيل الثانى هو طريق النسيج الدرامى إلى حياة القصور والسلطة، وأيضا إلى ملاهى وحانات وبيوت القبارصة واليونانيين وحثالة الأجانب !.. من صلب محمدين يخرج الجيل الثالث : " سلامة " الذى ورث طباع وشيم جده، ودخل المدرسة الحربية وعاصر أحمد عرابى (١٨٤١/١٩١١).. نموذج مختلف لمن لا يعجبهم الحال المايل للقصور الخديوية وملاهى الأجانب.. يعيش هموم الفلاح المصرى الذى أمضّته السخرة وأثخنه محمد على وسلالته بالضرائب والمكوس التى طفق محمد على يجمعها بعد أن نزع ملكية جميع الأراضى المصرية وحولها إلى ضيعة شاسعة له يتصرف فيها لقاء ما يجتبيه !.. يعيش " سلامة " الأحداث التى عاشتها " جمعية حلوان " التى تعاطف معها كبقية العرابيين الذين جعل يختلف معهم إلى بيت عرابى.. وإلى بيت البارودى (١٨٣٩/١٩٠٤)، ومجالس الأفغانى (١٨٣٨/١٨٩٧) وتلميذه محمد عبده (١٨٤٥/١٩٠٥)، ولا تفوته ندوات وأشعار عبد الله النديم (

١٨٤٥ / ١٨٩٦) لسان حال الثورة العرابية.. مع اشتعال الحركة العرابية كان " سلامة " قد وصل إلى رتبة " صاغ " مثل زميله " محمد عبيد ".. كانت أمه الجركسية " بمبة خاتون " قد اضطرت على خلاف رغبتها لمباركة زواجه من " أمينة " المصرية ابنة صديق جده إبراهيم إبان أن كان شاويشا طوبجيا فى طابية قايتباى بالإسكندرية.. ينخرط سلامة مع أمثاله من الشرفاء فى الحركة العرابية، ويعيش أحداثها ومعاركها بالإسكندرية ثم كفر الدوار ثم القاهرة ثم التل الكبير.. يقاتل ضمن فرسان التراب الأسمر فى ملحمة التل الكبير.. فيها استشهد حيث يعثر جده إبراهيم على جثمانه على رمال الصحراء - بينما زوجته " أمينة " تضع بالإسكندرية مولودهما " مجاهد ".. يتلقف الجد حفيده الأصغر برعايته وحدبه.. يكاد يرى فيه المستقبل الذى لم يحققه.. ما إن يشب "مجاهد " عن الطوق حتى يصحبه لرؤية الفتى مصطفى كامل (١٨٧٤ / ١٩٠٨) طالب الحقوق الذى طفق يلهب مشاعر المصريين ويؤجج الشعور الوطنى.. ما إن يراه الشيخ إبراهيم حتى ترتسم أمامه صورة حفيده الشهيد " الصاغ سلامة " فيبتسم فى المشهد الأخير ابتسامه عريضة وهو يحيط بذراعه القوية حفيده الأصغر " مجاهد " !

فى خلفية القصة الإنسانية المجدولة بعناية وسلاسة، وعبر مشاهد المسلسل الذى تضافرت فيه الوقائع المعاشة، مع القص والحكى، ومع المزج والفلاش باك، تتوالى قصة الكفاح الشعبى الطويل.. مقاومة مظالم المماليك، وصد ومقاومة الحملة الفرنسية، وثورات القاهرة المتتالية ضد الفرنسيس - البطولات المصرية فى صد حملة فريزر الإنجليزية (١٨٠٧)، والتفاف محمد على بعد خلاصه من المماليك لتصفية الزعامات

الشعبية.. ينفى عمر مكرم نقيب الأشراف بعيدًا عن الإسكندرية، ويثقل على الشعب بالضرائب والمكوس، ويجرد الحملات هنا وهناك فى الحجاز، والسودان، واليونان، والمورة، والشام، يقاتل فيها بفرسان التراب الأسمر خارج الديار، ليتضخم طموحه، ويعانى البسطاء ويدفعون الثمن ضرائب فادحة، ومعها تربص الباب العالى وحصار أوروب التى سارعت إلى اتفاقية لندن (١٨٤٠/١٨٤١).. مآسى السخرة، حفر قناة السويس، وفتح الباب على اتساعه للاقتراض من الأجانب والغرق فى الديون وصندوقها، ومنح الامتيازات للأجانب.. تتصاعد مع تعاقب ولايات الأسرة العلوية عوامل القهر والسخط، ويئن الفلاحون من الضرائب، والسراى موزعة بين الباب العالى ومصانعة الأجانب.. يتوالى تجمع أسباب الثورة فى عهد إسماعيل حتى تبلغ مداها فى عهد الخديو توفيق.. تتبدى مع المد الشعبى وأشعار البارودى والنديم وندوات الأفغانى ومحمد عبده، بطولات عرابى، والبارودى، ومحمود فهمى، وعبد العال حلمى، ومحمد عبيد، وطلبة عصمت.. سرعان ما تتحول الحركة من المطالبة بإنصاف الضباط الوطنيين فى الجيش إلى حركة عامة اشتركت فيها طبقات وطوائف الأمة : الأزهر والكنيسة والشعب، إلى جوار الجيش، للتخلص من الحكم الاستبدادى وتقرير مبادئ العدل والحرية ووضع دستور يلبى مطالب الأمة.

يحكى مسلسل الرباعية المصرية، ملحمة فرسان التراب الأسمر عبر نضال طويل وسط رباعية الشعب والأزهر والكنيسة والجيش.. نضال لا تخطئه عين تجاه القصر الذى طفق وهو يدوس على حقوق الشعب - يصانع الباب العالى، ويراضى الأجانب، ولا يبالى بما يتجرعه البسطاء

من ألوان البؤس والقهر والشقاء.. هذه الرباعية المتقابلة، بين قوى الكفاح وميادينه.. هى صراع الشعب بعامة فى مواجهة السراى الذى تسرب الآن إلى الناس - بوعى أو بغير وعى - أنه لم يكن هناك تناقض بين قاطنى أبراجها وبين الشعب، وأن ثورتنا - من ثمّ ! - كانت هباءً بغير موجب، وأن مشروعنا القومى سراب مصطنع بلا طائل !

هذه الرباعية المصرية التى كتبها سعد زغلول نصار، وتراخى إنتاجها بعد وفاته ومن بعده يحيى العلمى الموكول إليه إخراجها.. هى هدية للشعب المصرى بعامة، وعرفان وتطامن للفلاح المصرى بخاصة.. فارس التراب الأسمر، الذى لفحته الشمس زارعاً، وحرقته الحروب والأعاصير مناضلا.. هذا الفلاح الذى أذاقه قاطنو السراى كل ألوان القهر على تراب بلده، فهل كانت هذه السرايات فى جانب هذا الشعب تحس بأحاسيسه وتنشغل بهمومه ومتاعبه وآماله، أم أن " البوصلة " قد ضلت فى زمن التيه ورياح التخذيل والتراجع ؟!!!

من مفارقات الأقدار أن يغادر سعد زغلول نصار دنيانا دون أن يرى ما أبدعه فى هذه الدرة المتميزة من درره التى طرحتها شجرته وفروعها فى شتى المجالات من عباءة الإذاعة التى عاش حياته وفيًا لها ممزوجاً بنسيجها معبرًا فى كل ما قدمه عن رسالتها !